مصطلح الذاتِيَّة في النقد الأدبي ودلالاته

مبــارك حسين و هويــدا سليمان و عامــر الطيب
جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا – كلية اللغات – قسم اللغة العربية

المستخلص:

إنَّ مصطلح (الذاتِيَة) ومنذ ظهوره في منتصف القرن التاسع عشر ظلّ محل دراسة وبحث من قبل علماء العلوم الإنسانية :(علم الفلسفة ، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع) من جهة ومن قبل النقاد المعاصرين من جهة أخرى حول هذا المصطلح الأمر الذي جعل البعض يعتقد أن الذاتية تعني الفردية وأنها صفة يقصد بها الذم فأطلقوا على الشعر الذى ينبع عن ذات الشاعر بأنه شعر ذاتي أي فردي حسب فهمهم. غير أن البعض الآخر استطاع أن ينفذ إلى الفهم الصحيح لهذا المصطلح فهماً أثرى الحياة الأدبية والنقدية وأثر فيها تأثيراً إيجابياً .

ومن الأهداف التى يسعى هذا البحث إلى تحقيقها :

–تعريف مصطلح الذاتية تعريفاً نقدياً دقيقاً .

– إزالة الغموض الذى شاب هذا المصطلح ، ومن ثم وضعه فى سياقه الصحيح إلى غيرها من الأهداف.

ولما كان هذا البحث يسعى لمعرفة مصطلح الذاتية ودلالاته ، اتبع المنهج الوصفى ، لاستقصاء معاني الذات فى العرف اللغوي، وفي القرآن الكريم ، وفي مجال الدراسات الإنسانية و الدراسات النقدية والأدبية.

توصل هذا البحث إلى نتائج عديدة أهمها:

– إنَّ النقد الأدبي الحديث استفاد من العلوم الإنسانية لدراسة المصطلاحات النقدية الحديثة.

– ظهور المدارس النقدية والمذاهب الفكرية فتح الباب أمام النقاد ودارسي الأدب للبحث عن معنى الذاتية والالتزام والموضوعية وغيرها من المصطلحات النقدية التى ظهرت حينئذٍ.

–هناك عدد من الدراسات النقدية الحديثة سبقت هذه البحث غير أنها لم تخصص (الذاتِيَّة) محوراً رئيساً لها.

الكلمات المفتاحية : *اللبس – الفلسفة الوضعية – البنية العليا – وعي حّي – الاستبصار*

ABSTRACT:

The term identity since it has appeared in the middle of the nineteen century has been used in study and reach by scientists of scientists of science and anthropology, psychology, sociology.On the otlcer side from modern critics.Otlcer hand that lead to the different points of view of modem critics around this term. The order which leads to some of them believe that the identity means individuality and its indication which means that critism that call for the poetry which generated from the Identity of the pouter himself that means identity or Individuality according to their understanding other discovered the right concept for this term which contribute and enrich to literature and hare become fruit full literal criticms and has positive effect.

The important object which the research want to achieve:-

- The right concept for this term (Identity).

- Removing the ambiguity of this term and replace in the right way.

The main abject of this research wont to find out the right definition for the aboretem so the researcher follows the descript ire methods to know the accurate meaning of Identity in language and holy Quran as Welles in the studies of critical literature.
The research has achieved many important results:-
The modern critics have benitt a lot of from the anthropology science to study modern critical terms.
There one many schools appear which let other critics to commit mistakes which reflected in analysis and understanding the logical definition for the new terms.
In addition to the studies a few research argued about this study and in nay point of view are not enough to define the term.

المقدمة :

إن مصطلح الذاتيَّة إرتبط فى الأساس بالعلوم الإنسانية (علم الفلسفة ، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع) ثم انسحب على الدراسات الأدبية والنقدية وهنا تكمن مشكلته والتى تتمثل فى تعدد تعريفاته واتساع مفاهيمه ، فضلاً عن أنَّ الدراسات التي عنيت به كانت قليلة وليس كافية – في تقديري– للإلمام بمعانيه ودلالاته.

ومن هذا المنطلق جاء هذا البحث محاولاً الكشف عن معاني الذاتية بدءاً بمعناه في العرف اللغوي مروراً بمعناه فى القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف انتهاءً بمعناه عند النقاد المعاصرين.

إن الدراسات النقدية التى تحدثت عن مصطلح الذاتية وعلى الرغم من أنها بحثت عن هذا المصطلح من حيث أصله و نشأته والدراسات التى اسْتُخدِم فيها سواء أكان ذلك فى الغرب أو الشرق على الرغم من هذا كلّه إلا أننا لم نعثر على دراسة نقدية حديثة أفردت عنواناً مستقلاً له الأمر الذى دفعنا إلى تخصيص مساحة لدراسة هذا المصطلح بأبعاده ومعانيه النقدية والأدبية .

الهدف الذي تسعى هذه الدراسة لتحقيقه هو: تعريف هذا المصطلح تعريفاً نقدياً دقيقاً ، ثم التعريف به هذا أولاً .

والأمر الثاني هو: إزالة اللبس الذى وقع فيه بعض النقاد حتى يتسنى للدارسين في مجال النقد الأدبي الحديث للبحث عن معنى هذا المصطلح على هُدًى وبصيرة.

الذاتية فى العُرف اللُّغوي:

وردت كلمة (الذات) فى معاجم اللغة بمعانٍ متعددة ، فمن ذلك ماجاء في (**المصباح المنير**)(المقري، 1922م ، ص189): إن الذات تطلق ويراد بها الحقيقة . وقد تطلق ويراد بها الرضى.

وقيل الذات تعني: الشئ نفسه. والذات أعمُّ من الشخص ؛ لأنه يطلق على الجسم وغيره والشخص لا يطلق إلاعلى الجسم. ويقال: ذات الشعر بمعنى حقيقته وما هيته .وصار استعمالها بمعنى (النفس) أو الشئ عُوفاً مشهوراً حتى قال الناسُ: ذات متميزة ونسبوا إلى لفظها فقالوا: عيب ذاتِي بمعنى جبلّي . والذات هى ما يصلح أن تعلَم وتخبر عنه.وجاء فى (**لسان العرب**) (ابن منظور ، تاريخ بدون ، ص 1478):إنَّ الذات تعنى

الجوهر . وقيل الذات منقولة عن مؤنث (ذو) بمعنى صاحب ولما كان النقل أجروها مجرى الأسماء المستقلة فقالوا :ذات قديمة وذات محدثة. وقيل التاء فيها كالتاء فى الموت والوقت فلا معنى لتوهم التأنيث بها. ومثناها ذاتان وجمعها ذوات . وربما استعملت بمعنى (التي) حيثُ قال الفرَّاء: ((سمعت أعرابياً يقول: بالفضل ذو فضلكم اللهُ ، والكرامة ذات أكرمكم الله بها)) (أبو منصور: محمد بن أحمد الأزهري ، 2001م ، ص1299) وفي (**محيط المحيط**) (بطرس بن بولس البستاني، 1988م، ص31) ، تقول العرب: وضعت المرأة ذات بطنها أي ولدت . ويقال قلَّت ذات يده أي ماملكت يده . وعَوِفَهُ من ذات نفسه يعني سريرته المضمرة.

الذات فى القرآن الكريم:

وردت كلمة(ذات) فى القرآن الكريم في سور عديدة وبمعاني مختلفة ، ومن هذه المعاني : الصاحبة، والجهة، والباطن، والحال. أمَّا بمعنى الصاحبة ففي قوله عزَّ وجلَّ :((يوم ترونها تذهلُ كلّ مرضعةٍ عمَّا أرضعت وتضع كلُّ ذات حملٍ حملها وترى الناس سُكارى وماهم بسكارى ولكنَّ عذاب الله شديد)) الحج :1 وجاءت بمعنى الجهة فى قوله سبحانه:((ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسطٌ ذراعيه بالوسيط)) الكهف :17 وبمعنى الباطن والخفايا في قوله سبحانه :((يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور)) الحديد :6 وجاءت بمعنى الحال في قوله جلَّ شأنه:((وأصلحوا ذات بينكم)) الأنفال :1.

الذات في الحديث النبويّ الشريف:

وفي أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وردت كلمة (ذات) في مواضع مختلفة غير أن معانيها انحصرت فى: الصاحبة ، والجهة.

عن أبي هريرة رضى الله عنه – عن النبي صلى الله عليه وسلم :((قال تُنكَحُ المرأةُ لأربعٍ: للدين والجمال والمال والحسب ، فعليك بذات الدين تربت يداك)) (موسوعة الحديث الشريف ،1996م، حديث رقم 2076) وهي هنا بمعنى صاحبة .

كما وردت بمعنى الجهة فى حديث ابن عمر رضى الله عنهما:((... ثم يأخذ ذات الشمال فيستهلُّ ويقوم مستقبلاً القبلة)). (انظر المرجع السابق حديث رقم 2077).

الذات في الشعر العربي القديم:

الشعراء الذين وردت فى شعرهم : عبيد بن الأبرص وامرؤ القيس بن حجر ، وعنترة بن شداد ، وغيرهم من شعراء تلك الفترة. قال عبيد بن الأبرص: (عبدالله الطيب، 1991 ، ص 340).

هل رامٍ عن عهدي وديك مكانه * * * إلى حيث يفضي سيلُ ذات المساجِدِ

وقال أيضاً : (المرجع السابق ، ص 342)

دارٌ لفاطمةَ الربيع بغمرةٍ * * * فقا شرافِ فهضب ذات رؤوسِ

وقال امرؤى القيس:(طاهر أحمد مكي 1968 ، ص 318)

وخرقٍ بعيدٍ قد قطعتُ نياطه *** على ذات لوث سهوة المشي مُذعانِ

وقول عنترة: (عبدالله الطيب ، ص343)

أسائلُ عن فتاة بني قُرادٍ * * * وعن أترابها ذوات الجمالِ

مفهوم الذات في العلوم الإنسانيَّة المعاصرة:

- **الذات في علم الفلسفة:**

أدرك النقد الحديث أنَّ هناك صلة بين الشعر والفلسفة ، حيثُ انقسمت الاتجاهات الفلسفية إلى قسمين كبيرين ، يندرج الأول تحت نزعة المثالية: التى ترى أن الأدب – مذهب الفن للفن – والمثالية فى الأدب لا تقف عند حدود الواقع ، بل تتجاوزه دائماً إلى ماوراءَهُ .والواقع أنَّ فلاسفة الجمال يدخلون في مفهوم المثالية جميع فلسفات الجمال ، ويدرجون فيها مذهب الفن للفن، والمذهب الرمزي إذ أنَّ هذه المذاهب لا تُعنى بالواقع المعيش وإذا صورته فلا تقصد إلى تغيره تغييراً ثائراً كما يريد الواقعيون.

أما الاتجاه الثاني فهو التجاه الواقعي الذي لم ينشأ فجأة ، بل كانت له بذور فى الأدب والنقد . ومظهرها ربط الأدب بالواقع أو بالغاية فى صورة من الصور فقد ارتبط الأدب بغاية خُلقية مباشرة عند أفلاطون وغير مباشرة عند أرسطو (محمد غنيمي هلال، 1973م،ص29). وفى العصر الحديث اتجهت الفلسفات نحو الواقع واتخذت لذلك صوراً وأشكالَ مختلفة، فكانت الفلسفة الاجتماعية أو الاشتراكية التى تُعنى بإصلاح المجتمع لإسعاد الفرد. ثم الفلسفة الوضعية أو التجريبية ثم الفلسفة الماديَّة التى تجعل مِن الفرد صدى ونتيجة لعوامل مادية وأخيراً الفلسفة الوجوديَّة.

ولعل الفلسفة الاجتماعية والتى كانت بقيادة :((سان سيمون)) فى عام ستين وسبعمائة وألف حتى العام خمسة وعشرين وثمانمائة وألف – وأتباعه في المجتمع– ذات صلة وثيقة بتوجيه الفن وجهة اجتماعية وتدور فلسفتهم حول مصير الإنسان في علاقته بأخيه الإنسان ثم بالعالم– وهم يرمون إلى القضاء على الأثر في الفرد.ويعتقدون أنَّ العدالة ليست خلقاً مثالياً يصنعه الإنسان ولكنَّها وليدة المجتمع ومظهرها في المجتمع التبادل المبني على المساواة بين الناس وهي في الفرد مبدأ الفكرة وصورتها وهي الغاية من الوجود والمعرفة .وهم يرون أنَّ الأدب يجب أن يخدم المجتمع بما يقدمه من مبادئ (محمد غنيمي هلال ، ص307). وتأثر الأدب بالفلسفة الوضعية أو التجريبية وموجز قضاياها: أن المعرفة المثمرة هي مَعْرِفَة الحقائق وحدها وأنَّ العلوم التجريبية هي التي تمدنا بالمعارف اليقينية، وأنَّ الفكر الإنساني لا يستطيع أن يعتصم من الخطأ فى الفلسفة والعلوم إلا بعكوفه الدائم على التجربة وبتخليه عن أفكاره الذاتية السابقة وأن الأشياء فى ذاتها لا يمكن إدراكها ؛ لأنَّ الفكر لا يستطيع إدراك شئ منها سوى العلاقات ثم القوانين التي تخضع لها العلاقات (محمد غنيمي هلال ، ص 328).

إن الفلسفة الواقعية انجهت إلى فهم العمل الأدبي اتجاهان :

الأول: اتجاه الشرح والتفسير لتراث الإنسانية الأدبي فى الماضي.

الثاني: تقويم وتوجيه الأدب المعاصر.

وفي الاتجاه الأول يُقصدُ بتفسير الأدب بوصفه جُزءاً من البنية العليا للمذهب الفكري ؛ فالأدب بوصفه جزءاً من هذا المذهب – تعبير عن رؤية الأديب لما حوله من وجهة نظر تتصل بحقيقة من الحقائق وهذه الحقيقة ليست فردية فى طبيعتها ، بل اجتماعية.

أما الاتجاه الثاني في تقويم الأديب وتوجيهه فهو يقوم في جوهره على أساس موضوعي ، لا نفسي، فكل عملٍ أدبي يعد صحيحاً مشروعاً إذا صوَّر جانباً واقعياً من الفترة التاريخية التي عاش فيها الأديب . وتزداد أهمية العمل بقدر رسوخ أصوله في وعي العصر الذي كُتِبَ فيه، وعلى قدر تصوير الأديب لهذا الوعي تصويراً فنياً غنياً فى واقعيته (محمد غنيمي هلال ، ص334). ولعلَّ إعجاب الفلاسفة بالعبقريات الأدبية كانت من منطلق أنَّ الأدب عمل من الأعمال التي تظلُّ فى خدمة الإنسانية وتجدد قيمه من خلال المجتمع.

فالوجوديون يقولون أن الانتاج الأدبي عمل حُر كريم يتوجه به الأديب إلى القارئ الحر الكريم ليشارك فى خلق مايريده الأديب خلقاً عن الحرية بمعناها الإنساني . وهم بهذا الفهم ذاتيون.

ومعنى ذلك أنَّ القيمة كلَّها – في نظرهم – هي لذات الإنسان الموجود.

فالعمل الأدبي ليس شيئاً من الأشياء ولكنَّه وعِيٌّ حَيٌّ يتوجه به الأديب إلى مجتمعه الخاص، غير أنه قد يقصد إلى مجتمع مثالي في المستقبل إذا وجد من معاصريه جفوة. وقد يقصد إلى مجتمع بعيد من مواطنيه ليصف لهم مُثله الإنسانية. ومن خلال ما تقدم يتضح أنَّ الاتجاهات الفلسفية المختلفة لها تأثيرات بالغة في الأدب والنقد معاً. وعلى هذا فإن الأدب يهدف إلى تقوية دعائم الحياة ونقل الواقع الى عالم الشعر أو النثر.كما يهدف أيضاً إلى تصوير الآمال والآلام في الحياة.ويتطلع إلى تحقيق قيم جديدة يسعى الى تحصيلها وتأصيلها من خلال المجتمع.

فالأدب إذن: دلالات وقيم متجددة يتطلع إليها المجتمع وتترسب فى ذواتهم أجمعين. وبهذه الاعتبارات الفلسفية السابقة تتأثر القيم الجمالية للأدب . ففي بعض الآداب ترمز الخرافات والأساطير إلى حقائق تؤثر في الفنَّ (محمد غنيمي هلال ، ص334) .

الذات في علم النفس:

يعتقد كثيُر من علماء النفس ومنظري الشخصية أن أفضل السبل إلى فهم الإنسان والتعامل معه هو اعتباره:((كلاً مُنظماً)) وليس مجموعة أجزاء . ويعتبر مفهوم الذات من الأبعاد المهمة فى الشخصية ،فقد اهتم بدراسته عدد من علماء النفس ومنهم ((وليم جميس)) الذي عرَّف الذات بأنها: المجموع الكلي لكل مايتطيع الإنسان أن يدعي أنه له جسده، وسماته، وقدراته ، وممتلكاته المادية، وأسرته وأصدقاؤه ، وأعداؤه ، ومهنته ، وهواياته ، وغير ذلك (رمضان محمد القذافي،1993م ، ص172).

ويقصد بالذات– أيضاً : الاتجاهات والأحكام والقيم التي حملها الفرد بالنسبة لسلوكه وقدراته وجسمه وقيمه.

لقد تباينت الدراسات والبحوث حول مفهوم الذات ويمكن تصنيفها إلى الآتي:

– دراسات وضعت الذات من حيث تكوين مفهومها . وأخرى اهتمت بالمتغيرات والمميزات التي تؤثر على تطور مفهوم الذات – ومنها ما ركز على علاقة المفهوم الذاتي بالسلوك الناتج.

وآخر هذه الدراسات حاول الاستبصار في مفهوم الذات أي: مقدار الاتفاق بين التقدير الذاتي وتقدير الاخرين بالنسبة لسمات معينة فى الفرد. وتتحدث نعيمة الشماع فى كتابها:((الشخصية)) عن الذات قائلة إن روجرز يرى أن الناس يختلفون في إدراكهم لما يحيط بهم ويستجيبون تبعاً لهذا ا لإدراك من خلال إطار مرجع ذاتّي داخلي؛ ولهذا فإن دراسة السلوك والتنبؤ به يجب أن تتمَّ من خلال هذا الإطار.(رمضان محمد القذافي ، ص172).

وهناك تعريف آخر للذات قال به **جورج هربرت ميد**، بأنها : تكوين اجتماعي ينشأ فى ظروف اجتماعية حيثُ توجد اتصالات اجتماعية . ويرى من الممكن أن تنشأ للإنسان ذوات عدة كل منها مجموعة مكتسبة من مختلف الجماعات الاجتماعية (إبراهيم أحمد أبوزيد ،1987م، ، ص76). وتحدث سيموندس عن الذات فقال: هي الأساليب التى بها يستجيب الفرد لنفسه. وهناك تفاعل بين الذات والأنا: (مجموعة من العمليات النفسية). (فيصل عباس ،1994م ، ص34). هناك بعضُ الكتُاب يعطي لمفهوم الذات أهمية أكبر من الأبعاد الأخرى في الشخصية إذ يعتبر هؤلاءِ أنَّ الذات هي العامل الأهم في التأثير على السلوك . فالذات هي عبارة عن بناء معرفي يتكون من أفكار الإنسان عن نواحي وجوده المتعددة حيثُ إنَّ مفهومات الشخص عن أعضائه الحسية وبنائه العضلي تُدعى:((الذات الاجتماعية)) وهذه الذوات تحدث بالترتيب لدى الشخص ومنها تتكون الذات الكلية له.(فادية عمر خولاني، 1997م ، ،ص23).

وتقول فادية عمر الخولاني عن الذات بأنَّها :((عبارة عن نتاج جماعي تختلف وتُعدل من خلال تفاعل الفرد مع الآخرين منذُ ميلاده. وبداية تحقيق الذات فى الإنسان تكون منذُ طفولته ومن هنا تتعدد الذوات وتتمايز حسب الرؤية والحاجة (فادية عمر خولاني، ص23.).

ويتغير مفهوم الذات وتطور نتيجة لتفاعله مع الآخرين :(الأسرة، والأب، والزوجة ، والأم ، والبيئة الاجتماعية...) ويحدث هذا التغيُّر فى مفهوم الذات من خلال الخبرات التي تطرأ على الفرد فى حياته. وإذا استطاعت الذات أن تتحكم في المحيط البيئي الذي يحيط بها، كان التطوُّر والتغير إيجابياً في مفهوم الذات . وتتأثر الذات يضاً بالأحداث اليومية التي يتعرض لها المرء في الحياة . وتتناقض قيمة الإحساس بالذات إذ زادت الخبرات المؤلمة في حياة المرءِ. ومن الأمور التي تسهم في نموَّ الذات وتطوره المزاج وتقلباته إذ يؤثر على الذات سلباً أو إيجاباً .

ومفهوم الذات هو ذلك التنظيم الإدراكي الانفعالي المكتسب الذي يتضمن استجابات الفرد نحو نفسه ككل ، كما يظهر ذلك فى التقدير اللفظي الذي يحمل صفة من الصفات على ضمير المتكلم ، وذلك في قطاعات واسعة من المجالات الاجتماعية أو الانفعالية أو المعرفية أو الجمالية أو الاقتصادية... أو البيئية إلى غيرها ويتضمن هذا التقدير حكماً من أحكام القيم التي تضع الفرد في مكان ما بالنسبة للعلاقات البيئية المختلفة خلال علاقته المتحركة معها. (فادية عمر خولاني ، ص23.). ولاحظ بعضُ علماء النفس المحدثين قصور علم النفس الحديث في دراسة للذاتِيَّة في الإنسان ، حيث يرى إريك فروم مثلاً : أنَّ اهتمام علم النفس الحديث صار محصوراً في المشكلات التافهة لذلك افتقر إلى موضوعه الرئيسي وهو الذات. (إريك فروم، 1997م ،

ص361). وفي السنوات الأخيرة قَطِنَ عددُ قليل من علماء النفس إلى أهمية دراسة الناحية الذاتية في الإنسان.

هذه الدراسات أظهرت أنَّ كثيراً من الظواهر السلوكية لدى الإنسان لم تُدرس مثل:((النواحي الدينية، والروحية، وقيمة الحب في أسمى صوره... الصراع الذاتِّي بين حاجات البدن والروح والتوافق بين الذات وغيرها)).

مفهوم الذات في علم الاجتماع:

العلاقة بين الأدب والمجتمع علاقة قديمة جداً ولعلَّ هذا ما جعل بين الأدب وعلم الاجتماع وشائج قوية إلى حدَّ تخصيص فرع من فروع علم الاجتماع لدراسة الظاهرة الأدبية سُمِّي بعلم الاجتماع الأدبِّي. وإذا كان علم الاجتماع الأدبي بمعناه العام يهتم بالعلاقة بين الأدب والظروف الاجتماعية فإننا نجدُ مواقف متجددة لعلماء الاجتماع تتباين إلى حدَّ التناقض حول رؤية طرفي العلاقة أي: حول النظر إلى الأدب من جهة وإلى الأديب من جهة ثانية ، وهذا يؤدي إلى وجود مفاهيم متعددة لعلم الاجتماع الأدبي، فهناك علم اجتماع أدبي يهتمُّ بتفسير نشأة الأدب وماهيته ووظيفته على اعتبار أنَّه شكل جماعي له دلالات اجتماعية . وهناك علم اجتماع أدبي يبحث عن صورة المجتمع داخل الأعمال الأدبية. كما نجد نوعاً آخر يهتم ببيان فكرة التناظر بين الأنواع الأدبية وأنماط علاقاتها الاجتماعية السائدة. وهناك نوع آخر ينظر إلى الأدب على أنه سلعة أو إنتاج وإلى الأدباء بوصفهم منتجين وإلى القراء بوصفهم مستهلكين. (رجاء عيد، 1998م ، ص146). ويقول أوستن أرين:((إنَّ الأدب مؤسسة اجتماعية أداته اللغة وهي من خلق المجتمع والوسائل الأدبية التقليدية كالرمزية والعروض، اجتماعية فى تصميم طبيعتها إنها أعراف وأصول لا يمكن أن تبزغ إلا في المجتمع. (رجاء عيد، ص146) فالشاعر عضو في المجتمع منغمس في الوضع الاجتماعي متأثر بالبيئة الاجتماعية ومشاعره وكيانه الإنساني عامة. ويختلف هذا التأثير من عصر إلى آخر ومن مكان إلى آخر بما للزمان والمكان والثقافة وعناصر الوراثة أو الخصوصية التي تميزبها هذا المجتمع أو ذاك استناداً على المعتقد الذي يؤمن به أو الفلسفة الحياتيَّة التي يسير عليها، وكلُّ هذه العناصر تعدُّ من المؤثرات الاجتماعية التي تثري الذات الشاعرة ؛ لأنها تولد في المجتمع وتُعبر عن حياة المجتمع بكل تفاصيلها ، وتساهم في تطوُّر المجتمع وقديماً كان العرب يفرحون أشدَّ الفرح حين يقدم مولود جديد للحياة. وفي هذا إشارة إلى أنَّ علاقة الذات الشاعِرة بالمجتمع علاقة وثيقة والشاهِد على تواطؤ هذه الصلة: الشعر الذي كان مرآة يعكس ويسجل حركة المجتمع في شتى مناحي الحياة. فكانت عبارة :((الشعر ديوان العرب)) صادقة و مطابقة لواقع الحياة حينئذ.

وترجع جذور علاقة الذات الشاعِرة في العصر الحديث بالمجتمع إلى بدايات القرن التاسع عشر عندما أصدرت مدام دي ستايل كتاباً بعنوان((الأدب وعلاقته بالنظم الاجتماعية)) ثم سار على نهجها النقاد في فرنسا وفي غيرها من البلدان الأوربية. لقد عكف الدارسون في هذا الاتجاه على دراسة شخصية الأديب وإبراز

العوامل المؤثرة فيها (أحمد أمين ، 1952م ، ص9 ومابعدها). وإلى هذا الحد تبدو علاقة الذات الشاعرة بالمجتمع طبيعية ومقبولة لاغلو فيها.

وخلاصة القول : هناك علاقة قائمة وراسخة بين الذات الشاعرة والمجتمع على أساس فهم وإدراك الصلة بينهما.

هذا، ويمكن للنقاد الاستعانة بالمجتمع وتياراته لفهم الذات الشاعرة أو الاستعانة بالشاعر لقراءة أحوال المجتمع الذي عاش فيه وعَبَّر عن حاجات المجتمع أصدق تعبير.

مفهوم الذاتِيَّة عند النُّقاد المعاصرين:

تحدَّث كثيرٌ من النقد المعاصرين عن مصطلح الذاتية ، فكان حديثهم عنها متفاوتاً في فهم هذا المصطلح فهماً دقيقاً. ومن هؤلاء النقاد محمد خلف الله الذي قال:((إنَّ الذات –الذاتِيَّة – الذاتِّي)) كلمة لاتينية الأصل و النشأة ، إذ عمَّ استعمالها في الدراسات الغربية: من فلسفة وأخلاق ونفس ، ونقد أدبي وغيرها من الدراسات وكان ذلك في منتصف القرن التاسع عشر، ثمَّ استُخدِم من بعد ذلك من قبل النقاد في الشرق الأوسط في القرن الماضي والحاضر (محمد خلف الله،1947م ، ص35). لقد تنوعت معاني هذه الكلمة بتنوع صيغها ومواضع استعمالها فمن معاني كلمة Subject الذات أو الشخص : القوة المُفكرة ؛ ومن معاني Object : الشئ أو الموضوع الذي يقع عليه إدراك العقل وتفكيره. ومن هذين المعنين أشتقت النسبتان Subjective ومعناها المنسوب إلى الموضوع أو الشئ الذي يقع عليه التفكير (محمد خلف الله ، ص36). فأحاسيس الذات وانفعالاتها وأطرابها وميولها ، وأحكامها تقوم على اعتبارات داخلية وخارجية تندرج تحت مُسمى (الذاتِيَّة). وتحدث محمد زكي العشماوي عن الذاتِيَّة في الفن عموماً ، فقال:((إنَّها نتيجة ما في الذات من تباين وفردية بل، إنَّ قيمة العمل الأدبي ترتفع وتسمو كلما كان هذا التباين وتلك الفردية مظهرين واضحين في النقد الأدبي)) (محمد زكي العشماوي ،1984م، ،ص16 وما بعدها)

فالعشماوي يرى أنَّ الذاتِيَّة هي ما يميز الأدب عن سائر العلوم . كما يعتقد أنَّها العنصر الأساسي الذي يصف الأدب بالأصالة: والتي تعنى مجموعة الخصائص الذاتية المميزة للشاعر أمَّا التباين المتعدد من ذات لأخرى، فهذا يأتي لانعكاس الأحداث والتجارب على شاعر بعينه أو بمعنى آخر هي صدًى لانفعال ما بتجربة ما أو محاولة ما لتعبير عن مكنونات الذات الشاعرة. وعلى الرغم من هذا التباين و التضاد اللذين يميزان كلَّ شاعر عن آخر أو كل إنسان عن آخر وعلى الرغم من أنَّ لكل مجموعة خصائص ذاتِيَّة مميزة غير أنَّه فينا جميعاً ذاتاً واحدة تتمثل في الطاقات المحدودة والنزعات والرغبات اللامتناهية هذه الذات الضعيفة جداً ، ولقوية جداً ، والعاجزة جداً ، والقادرة أشدُّ القدرة، والتي تفرح وتحزن وتخاف وتقلق، وتنتصر وتنهزم، وتحبُّ وتكره... إلى غيرها من كوامن الذات الإنسانية يستطيع الشاعر أن يجسد هذا العمل الأدبي (محمد زكي العشماوي، ص17). هناك اتجاه نقدي آخر يرى أنَّ الذاتِيَّة : هي تجربة شخصية منفتحة على الإنسانية ويمثل هذا الاتجاه محمد الصادق عفيفي الذي يقول:((إنَّ الذاتية هي تجربة منفتحة على الإنسانية بمعنى آخر: الشاعر عندما يعاني هذه التجربة الذاتِيَّة ليس معنى ذلك أنها موثوقة بحبال الشاعر ومحكومة بمنطقه

وعواطفية، كلا ؛ لأنَّ القارئ يرى فيها ذاته ويتجاوب معها، وكأنَّما صاحب التجربة لم يفكر في نفسه أو يكشف عن ذاته فحسب بل يعبِّر أيضاً عن تجربة الآخرين وينقلها بأمانة ودقة، ومن ثمَّ فإنَّ التجربة ذاتية في مصدرها، ولكنَّها ذات نزعة إنسانية عامة (محمد الصادق العفيفي، 1978م ، ،ص62.).

فالتجربة الذاتيَّة يتمثلها الشاعر برؤيته أو سمعه لها على بساط الحياة فهو يستوحيها ، ويتحدُّ معها عن طريق التعاطف ، ثم ينشرها وجداناً وفكراً.ومن هنا يتضح جليًّاً أنَّ الذاتِيَّة تصدر عن وجدان خالص تحمل في طياتها المقومات الموضوعيَّة فالتعبير ذاتِيٌّ في نشأته ولكنَّه موضوعي العاقبة. ويرى عبد اللطيف محمد سيِّد الحريري:((أنَّ الذاتِيَّة في عمومها : هي ذلك اللون الشخصي من الأدب الذي يتناول حياة الشاعر بكل أبعادها وجوانبها ، ومظاهر تأثيرها بالمؤثرات الخارجية ومظاهر تأثرها في تلك المؤثرات – فهي سجل كامل لحياة الشاعر (عبداللطيف محمد سيد، 1996م ، ،ص138 مابعدها). ويرى محمد غنيمي هلال:((أنَّ التجربة الذاتية المحضة هي التي يقصد فيها الشاعر إلى التأمل الذاتي أو التأمُّل الذاتي الاجتماعي وليس معنى هذا أنَّ التجربة الذاتِيَّة مقصورة في حدود الُمعبَّر عنها ، وإنَّما هي إنسانية بطبيعتها فالشاعر الذاتِّي موضوعي، لأنَّه جعل ذاته موضوعِيَّة وكأنه يتأملها في مرآة ، فالتعبير ذاتِّي في نشأته ، ولكنه موضوعي في عاقبته (محمد غنيمى هلال ص361..).ولا يحقق الشاعر(الذاتِيَّة) ذات المعنى الإنساني إلَّا بعد أن تصبح أفكاره ومشاعره ذاتِيَّة موضوعيَّة. ويقول محمد مندور:((إنَّ الذاتِيَّة تعني التجربة الشخصية، التي تسوقها للأديب أحداث الحياة، المتمثلة قي الماضي المستمر في الشخصية و الحاضر الذي انتهت إليه الشخصية، إذ يؤلفان عادة الشخصية البشرية التي يمكن فيها جوهر الفرد (محمد مندور،1978م ، ص70.).

النتائج والُمناقشة

تتلخص نتائج هذا البحث في النقاط الآتية:

- هناك صلة وثيقة بين معنى كلمة الذات في العُرف اللَّغوي ومعناها في المصطلح النقدي.
- إنَّ النقد الأدبي الحديث استفاد من العلوم الإنسانية لدراسة مصطلح الذاتِيَّة والتعمّق فيه.
- ظهور المدارس النقدية في العصر الحديث فتح الباب على مصرعيه للبحث عن معنى مصطلح الذاتية وغيره من المصطلحات النقدية التي ظهرت حينئذٍ.
- اتساع مفهوم الذاتية وتعدُّد تعريفاته فسح المجال أمام النقاد والدارسين لإجراء المزيد من البحوث والدراسات حول هذا المصطلح.
- هناك عدد من الدراسات النقدية سبقت هذا البحث غير أنهَّا لم تخصص ((الذاتِيَّة)) محموراً رئيساً لها.

الخـاتمة والتـوصيات

هذا البحث يوصي بالآتي:

- إعادة النظر في البحوث والدراسات التي تناولت مصطلح الذاتَيَّة .
- دراسة المظاهر الذاتِيَّة وتجلياتها في الشعر العربي الحديث.
- علاقة الذاتِيَّة بالمصطلحات النقدية الحديثة كالموضوعية والالتزام وغيرهما.
- دراسة الذاتِيَّة في بقية الأجناس كالقصة – الرواية ... الخ.

المصادر والمراجع

1- المقري، 1922م ((المصباح المنير)) ، مطبعة الأميرية ، القاهرة ، الطبعة الخامسة ، ط5 ، مادة (ذات) .

2- ابن منظور، تاريخ بدون ((لسان العرب)) ، دار المعارف ، القاهرة ، طبعة جديدة ، مادة:(ذات) .

3- أبو منصور: محمد بن أحمد الأزهري، تاريخ بدون((معجم تهذيب اللغة)) دار المعرفة، بيروت، لبنان ، الطبعة الأولى، مادة :(ذات).

4- بطرس بن بولس البستاني،1988م ((محيط المحيط)) مكتبة لبنان ، ناشرون:((ساحة رياض الصلح)) ، الطبعة 2 ، مادة (ذات) .

5- محمد غنيمي هلال، 1973م ، ((النقد الادبي الحديث)) ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

6- رمضان محمد القذافي،1993م ((الشخصية)) ، بنغازي، دار الكتب الوطنية.

7- ابراهيم أحمد أبوزيد،1987م((سيكولوجية الذات والتوافق)) دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية.

8- فيصل عباس،1994م((التحليل النفسي للشخصية))دارالفكر البناني،،بيروت،ط1

9- فادية عمر الخولاني، 1997م، ((دراسات حول الشخصية العربية)) ، مطبعة ومكتبة الإشعاع الفنية.

10- إريك فروم، 1997م ،((الدين والتحليل النفسي)) ترجمة فؤاد كامل، القاهرة، مكتبة غريب.

11- رجاء عيد، 1998م ،((فلسفة الالتزام في النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق)) ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، جلال حزي وشركاؤه.

12- أحمد أمين ، 1952م ،((النقد الأدبي)) ، ط3، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية .

13- محمد خلف الله، 1947م ،((من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده)) القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

14- محمد زكي العشماوي ، 1984م ،((قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث)) دار النهضة العربي للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان .

15- محمد الصادق العفيفي، 1978م ،((النقد التطبيق والموازنات))، الناشر مكتبة الخانجي ،القاهر.

16- محمد مندور،1978م((في النقد والأدب)) ، دار النهضة مصر للطباعة والنشر ، الفجالة، القاهرة.
17- عبداللطيف محمد سيد الحريري، 1996م ،((فنُّ السيرة بين الذاتية والغيرية فى ضوء النقد الأدبي الحديث))، دار السعادة للطباعة، ط1.